الوسطية في تدبير القضايا العقدية في منهج الإمام عبد الجليل القصري في حل مشكل الحديث العَقَدي

أد. عبد الهادي الخمليشي.
أستاذ بدار الحديث الحسنية – المغرب

تمهيد:

شاع عند الدارسين المهتمين بالشأن العقدي سؤال المفارقة بين التزام المذهب الأشعري في العقيدة والمذهب المالكي في الفقه، مع إيراد أن مذهب الإمام مالك في العقيدة قد لا يتفق بالضرورة مع مذهب الأشاعرة في عدد كبير من القضايا، وقد أحدث سؤال المفارقة هذا شغبا لدى عموم الناس، ممن يدعي أن المالكية لم يكونوا منسجمين حين التزموا مذهب الأشاعرة، وأن مذهب مالك في المعتقد أولى بالاتباع، وقد كنا إلى عهد قريب نعتقد أن هذا النقاش من محدثات موجة البحوث العقدية الوافدة من الشرق، لكن يبدو أن الأمر ليس كذلك، بل إنه سؤال كان يتردد في نفس الإمام عبد الجليل القصري. مما دعاه إلى تأليف كتاب في بيان الأحاديث المشكلة ليجيب عن سؤال المفارقة هذا بمنهج فريد زاوج فيه بين تبني منهج الإمام مالك في الإمرار، بناء على نصه المشهور في الاستواء، ومنهج علماء الكلام في الفهم، مع تحليله هذا الفهم بنَفَسٍ صوفي لا يخلو من ذكاء يجمع بين اختيارات المغاربة وثوابتهم، وهي منقبة منهجية تحسب لهذا الإمام؛ لأنه ينتقل بك من خطاب العقل إلى خطاب القلب، ومن الاقتناع إلى الاعتقاد، ومن جفاء علم الكلام، إلى رقة علم الحال، ومن رتابة المنطق إلى جمال الإيمان، ومن تعقيد الجدل والحجاج، إلى جمال التفكر والتدبر، ومن تكلف التأويل، إلى عذوبة الإشارة.

أولا: منهج الإمام القصري في الفهم:

إن رحابة الجلال الروحي الذي يعيشه الصوفي الحق يشعره بأن العقلَ قيدٌ، مستلهما هذا الشعور من الاشتقاق اللغوي للكلمة، ولذلك فإن استعمال العقل في المعرفة الإلهية حجاب يحجب صاحبه عن معانقة الحقيقة، ليغرق في غياب الظنون والتأويلات، فالصوفي يذوق بنور قلبه الصافي حقائق العوالم والمغيبات ما يقصر عن إدراكه العقلاء، وبالتالي فالعجز عن الإدراك إدراك، غير أن لذّة هذه المعرفة تدعو للاستزادة منها، إلى حد لا ينتهي؛ قد يودي ببعض الصوفية إلى المبالغة في التعمق في الغيبي لتنقلب النتائج من حقائق إلى تخيلات، **"فيشتبه –كما قال الإمام حجة الإسلام الغزالي– العلم الحقيقي بما لا حقيقة له، وافتقر بسببه إلى معيار، فكذلك يشتبه العلم الصالح النافع في الآخرة بغيره،**

فيفتقر إلى ميزان تدرك به حقيقته"[1]. وكان لفكرة الإمام الغزالي هذه صدى في الديار المغربية، يقول الدكتور محمد المغراوي: "**إن النزعة الأخلاقية الغزالية قد أثرت تأثيراً مباشراً على توجُّه الصوفية المغاربة من خلال هذا العصر – يعني الموحدي– لذلك انحسر أثر مدرسة ابن مَسَرَّة الأندلسية في المغرب، والتي كانت فلسفيةً اعتزاليةً**"، وكان الإمام القصري من أعظم المتأثرين بهذه المدرسة، فقد أخذ عن الشيخ أبي الحسن علي بن أحمد بن حنين الكناني القرطبي (م596هـ)، وكان –هذا الأخير– تلميذا للإمام أبي حامد الغزالي. وقد وصف الإمام الذهبي في السير عبدَ الجليل قائلا: "**ساد في العلم والعمل، وكان منقطع القرين، وكلامه في الحقائق رفيع بديع، منوط بالأثر في أكثر أموره**"[2] قال أبو جعفر بن الزبير: "**كلامه في طريقة التصوف سهل محرر مضبوط بظاهر الكتاب والسنة، ختم به التصوف بالمغرب ورُزِق من عَلِيِّ الصِّيتِ والذِّكْرِ الجَميلِ ما لم يُرزَق كَبيرُ أحَدٍ**"[3].

لقد مهدت بهذه النظرة لأوصل لفكرة مفادها أن معيار الذوق حاضر بقوة في الدراسات التي قدمها الإمام القصري، حتى أن الذهبي أشار من طرف خفي إلى انتقاده فقال:"**وربما قال أشياء باجتهاده وذوقه، غفر الله له**"[4]، إن قولنا هذا لا يفيد البتة عدم تمكنه من آليا التفكير الكلامي والفلسفي، بل إن ثقافته كانت أوسع من ذلك، كما أن قولنا هذا لا يفيد البتة بأن الإمام القصري شطح به ذوقه إلى درجة خرجت به عن الجادة كما أومأ إليه الذهبي، بل إنني أتصور بأن منهجه هذا منقبة منهجية شريفة تحسب لهذا الإمام، لأنه استطاع بها أن يخرجنا من المفارقة التي تكلمت عنها في مستهل هذه الورقة، وحري بي أن أصف منهجيته هذه بالمنقبة الشريفة، وستتجلى معالم هذه المنهجية فيما سيأتي.

مشكل الحديث العقدي:

مشكل الحديث من الإشكالات العلمية التي خاض فيها العلماء من مختلف التخصصات، وتجاذبتها المنهجيات، وأنتجت لنا ألوانا فكرية مختلفة، من حيث المحددات والنتائج، ويكفينا إطلاق مصطلح "مشكل" عَلَما عليه، بحيث أنه أغرق في الخفاء إلى حد لا يمكن معه كشف حقيقته إلا بالتأمل، ولأن الإشكال ناتج فيه عن الاشتباه. وقد وُفق العلامة عبد الوهاب خلاف إلى تعريفه تعريفا جمع فيه المعاني التي قصدت إليه تعريفات الأصوليين، فقال هو: "**اللفظ الذي لا يدل بصيغته على المراد منه، بل لابد من قرينة خارجية تبين المراد منه، وهذه القرينة ينبغي لها أن تكون في متناول البحث**"[5].

إن التعارض أو التناقض الظاهري الحاصل بين المعاني الظاهرة التي قد يفيدها المشكل الحديثي وبين المعاني المقررة في النص القرآني أو النص الحديثي القطعي، أو ما تقرر من إجماع العلماء، أو ما أفاده صريح المعقول، أحوج العلماء إلى

[1]– معيار العلم في المنطق، أبو حامد الغزالي، ج 1 ، ص 86.

[2]– سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب أرناؤط، مؤسسة الرسالة، ج 42، ص 9.

[3]– سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب أرناؤط، مؤسسة الرسالة، ج 42، ص 9.

[4]– سير الأعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب أرناؤط، مؤسسة الرسالة، ج 42، ص 9.

[5]– علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، مكتبة الدعوة، ج1، ص 171.

بيان وجه هذا التعارض أو التناقض، وقد اشتد الأمر حين تعلق بالعقيدة، فالنصوص الحديثية المرفوعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبحت بمقتضى ذلك موضع استفهام، وقد أنتج لنا هذا الاستفهام مجموعة من الآراء والمناهج اختلفت باختلاف الفرق والمذاهب، بل والأجيال أيضا.

إن قداسة النص الحديثي لم تمنع من استشكال معناه، بل إن رفع الإشكال مقصود شرعا، إثباتا لصدقية هذا الدين، وتكامل نصوصه وقواعده ونفي تنافرها، والتزاما بالفهم السليم والعمل الموافق، والحق أن الإشكال يكون في فهم الناس لا في النص، كما يقول التقي ابن تيمية: **"قد يشكل على كثير من الناس نصوص لا يفهمونها، فتكون مشكلةً بالنسبة إليهم؛ لعجز فهمهم عن معانيها"**[6]، وفي صحيح البخاري أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم، كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"من حوسب عذب"**، قالت عائشة رضي الله عنها فقلت: **"أوليس يقول الله تعالى: "فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً"**،قالت: فقال: **"إنما ذلك العرض؛ ولكن من نوقش الحساب يهلك"**[7] .

لقد أحدث الانحراف العقدي في الديانات السابقة كالنصرانية واليهودية تحفظا بل توجسا لدى مفكري الإسلام من الوقوع في نفس الانحراف، فتعمق النقاش الخاص بصفات الله تعالى بجميع أقسامها، وانقسمت الفرق الإسلامية عليها إثباتا ونفيا، والكل يروم التنزيه، تحقيقا لقوله تعالى: "**ليس كمثله شيء وهو السميع العليم**"[8]. وبالتالي أصبحت الأحاديث المفيدة للصفات أحاديث مشكلة سواء كانت صفات ذات أو صفات أفعال، وانقسم الناس فيها كما قال الإمام القصري إلى أربعة أقسام قال رحمه الله[9]: "**اعلم أن الناس انقسموا في المشكل على أقسام ترجع بالحصر على أربعة:**

1. **مبطل معطل للذات من الصفات.**
2. **ومشبه لباريه بخلقه في الجوارح والأدوات.**
3. **ومتأول لها على حسب ما وهب له الوهاب.**
4. **وممر لها كما جاءت من غير تشبيه ولا تعطيل.**"[10].

---

[6]– مجموع الفتاوى، ابن تيمية، تحقيق أنوار الباز، دار الوفاء للنشر، ج17، ص 307.

[7]– صحيح البخاري، ، باب من سمع شيئا فرجع حتى يعرفه، ج1، ص51 .ح 103. دار ابن كثير.

[8]– سورة الشورى، الآية 11.

[9]- تنبيه الأفهام في مشكل أحاديثه عليه السلام ،عبد الجليل القصري، مخطوط ورقة 2.

[10]– موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، ج7، ص 289.

وإذا كنا متفقين على بطلان القسمين الأولين، فإن كلا من القسم الثالث والرابع يدعي صاحبه الحق فيما انتحاه من منهج يتلقى به هذه الأحاديث، ولا بأس من إيراد مثالين من كل قسم نتصور بهما الفتق الذي حاول الإمام القصري رتقه بمنهجه:

المثال الأول:

يقوم على القول بتأويل النصوص إن قبلت التأويل أو أمرت بالتفويض وإلا طعن في صحة الحديث، قال صاحب الجوهرة:

وَكُلُّ نَصٍّ أَوْهَمَ التَّشْبِيهَا أوِّله أو فوِّضْ وَرُمْ تَنْزِيهاً

وهذا ما قرره الإمام الغزالي بقوله: "**كل خبر مما يشير إلى إثبات صفة للباري تعالى يشعر ظاهره بمستحيل في العقل نظر: إن تطرق إليه التأويل قبل وأول, وإن لم يندرج فيه احتمال تبين على القطع كذب الناقل، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مُسَدِّدَ أرباب الألباب ومرشدَهم، فلا يظن به أن يأتي بما يستحيل في العقل**". وقال: "**والقول الوجيز أن كل ما لا تأويل له فهو مردود، وما صح وتطرق إليه التأويل قبل**"[11].

ويقوم أيضا على تضليل القائلين بظواهر النصوص دون تأويل: قال السنوسي: "**وأما من زعم أن الطريق بدءا إلى معرفة الحق الكتاب والسنة، ويحرم ما سواهما، فالرد عليه أن حجيتهما لا تعرف إلا بالنظر العقلي، وأيضا فقد وقعت فيهما ظواهر اعتقادها على ظاهرها كفر عند جماعة وابتداع**"[12]. وقال الصاوي في تعليقه على الجلالين: "... **الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر**"[13]. وحكاية كل من السنوسي والصاوي معتبرة عندنا.

المثال الثاني:

يقوم على القول بالتزام نصوص الكتاب والسنة في إثبات الصفات ويلتزم بظاهرها، ولا يرى الخوص والجدل فيها، لأن مبناه على التسليم، قال الإمام ابن عبد البر: "**ليس في الاعتقاد كله في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء منصوصا في كتاب الله، أو صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو أجمعت عليه الأمة، وما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله، أو نحوه، يسلم له، ولا يناظر فيه**". وقال: " **ومحال أن يكون من قال عن الله ما هو في كتابه منصوص مشبها، إذا لم يكيف شيئا، وأقر أنه ليس كمثله شيء**". **ونقل عن ابن القاسم: سألت مالكا عمن يحدث الحديث : "إن الله خلق آدم على صورته"، والحديث: "إن الله يكشف عن ساقه يوم القيامة"، فأنكر**

---

[11]– المستصفى، الغزالي، تحقيق محمد بن سلميان الأشقر، طبعة الرسالة،ج 2،ص137 – 138.

[12]– شرح عقيدة أهل التوحيد الكبرى، السنوسي، ص 502.

[13]– انظر حاشيته على تفسير الجلالين في تفسير سورة الكهف على قوله تعالى: " ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا" الآية 23. وعامة المذاهب الأربعة على خلاف ذلك كله...

ذلك إنكارا شديدا، ونهى أن يحدث به أحداً"، وعقب ابن عبد البر بقوله: "إنما كره ذلك مالك خشية الخوض في التشبيه بكيف "ها هنا""[14]، ثم نقل عن يحي بن مزين قوله: "إنما كره مالك أن يتحدث بتلك الأحاديث لأن فيها حدا وصفة وتشبيها، والنجاة في هذا الانتهاء إلى ما قال الله –عز وجل– ووصف به نفسه بوجه ويدين وبسط واستواء وكلام... فليقل قائل بما قال الله، ولينته إليه، ولا يعدوه، ولا يفسره، ولا يقل كيف؟ فإن في ذلك الهلاك، لأن الله كلف عبيده الإيمان بالتنزيل، ولم يكلفهم الخوض في التأويل الذي لا يعلمه غيره، وبلغني عن ابن القاسم أنه لم ير بأسا برواية الحديث إن الله ضحك وذلك لأن الضحك من الله والتنزل والملالة والتعجب منه ليس على جهة ما يكون من عباده"[15].

موقف الإمام القصري من الفريقين:

يتأسس على ما سبق أنه من المفارقة بمكان الجمع بين الفريقين، إلا أن الإمام القصري انتحى في ذلك منحى جديدا، فأبطل التعطيل، وأبطل التشبيه، واعتبر التأويل من الأقسام المذمومة إذا كان خارجا عن الحق، بقول: "...**نفي التعطيل، ونفي التشبيه، ونفي التأويل الخارج عن الحق، فهذه ثلاثة أقسام مذمومة**" ويجيز التأويل بمعنى الفهم "**على حسب ما وهب له الوهاب**"، ثم إنه قسم القسم الرابع الذي هو الحق إلى قسمين: قال: **وممر لها كما جاءت من غير تشبيه ولا تعطيل، و هذا القسم الأخير هو اعتقاد الجم الغفير، إلا أن قولهم: أمروها كما جاءت، يحتمل معنيين:**

أحدهما: يعتقد إثباتها كما جاءت مع فهمها: أي فهم الشيء على ما هو عليه. وهذا الغاية القصوى في الفهم و التوفيق لمن أعطيه من أهل الإنابة و التحقيق، وقد نطق الأئمة الذين أَمَرُوا بإمرارها كما جاءت بذلك في أقوالهم، كمالك رحمه الله في الاستواء، حيث قال مجيبا للسائل عن الاستواء: "الاستواء معلوم، و الكيف غير معقول". فأخبر أن الاستواء معلوم، و المعلوم مفهوم بلا شك. و كذلك الأوزاعي قد أجاب في حديث النزول أيضا جوابا ينبئ عن فهمه له واعتقاده فيه". ثم قال: "والصحيح إمرارها كما جاءت، وبه قال الفقهاء مالك والشافعي وسفيان الثوري وابن عيينة وابن المبارك. وإلى ذلك ذهب البخاري، وجميع المحدثين، وأهل العلم من السنة والجماعة من السلف والخلف رحمة الله عليهم. إلا أن الظن بهؤلاء أنهم فهموها على ما هي عليه.

وفهم الشيء على ما هو عليه، هو الغاية القصوى. ويكون معنى قولهم: "أمروها كما جاءت نفي التعطيل، و نفي التشبيه، و نفي التأويل الخارج عن الحق. فهذه ثلاثة أقسام مذمومة، والقسم الرابع هو الحق، هو الإمرار لها كما جاءت إلا أن الناس في هذا القسم الرابع على قسمين قسم فهمها فاستراح، وقسم توقف عن فهمها

[14]– الاستذكار الجامع لفقهاء الأمصار، ابن عبد البر، ج2، ص 426.

[15]– التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابم عبد البر، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوى و محمد عبد الكبير البكرى، مؤسسة القرطبة، ج7، ص 152.

واعتقد التمجيد لها إلا أنه متعوب القلب لأن الشيء إذا لم يفهم كان طالبه متعوبا، لأن التوقف ليس بعلم إلا أن الله قد رحم الأمة بسورة الإخلاص وبقوله ليس كمثله شيء، فهو الغاية في العلم"[16].

وتأكيد الإمام القصري على أن الإمرار بمعنى **فهم الشيء على ما هو عليه، هو الغاية القصوى في العلم،** تأكيد على صحة مذهب الأئمة الفقهاء مالك والشافعي والسفيانان وابن المبارك ومن نحى نحوهم من المحديثين الذي فهموا الشيء على ما هو عليه، وفي نفس الوقت عاب بلطف مذهب الواقفة. وهذا مذهب المتأولة بشرط التزام الفهم الذي يهبه الوهاب، وعدم الخروج عن الحق.

منهج الإمام القصري في تناول مشكل الحديث:

لقد اتضح موقف الإمام القصري من الفرق التي خاضت أو توقفت في الأخبار المشكلة، وتجاذبا مع هذا الموقف –الذي برأينا يجيب عن القلق الذي كان يملأ قلوب الناس بخصوص مسألة الثوابت الدينية في بلده–، ألف كتابه "**تنبيه الأفهام في مشكل حديث النبي عليه السلام**"، وأرجح أن يكون هذا عنوانه انسجاما مع منهجه، فمصطلح "**الفهم**" مفتاح هذه الإشكالية حسب الإمام القصري، وكأنه بكتابه هذا ينبه الأفهام لفهم المشكل بمنهجه هذا دون غيره من العلماء والفقهاء فيما نعلم.

أ– **بين القصري وابن فورك:**

لقد سبقه من الأشاعرة إلى التأليف في المشكل أبو بكر محمد بن الحسن ابن فورك 406هـ، وهو حاضر في كتابه هذا، يورد تأويله للحديث ويعقب عليه بفهمه هو، فهمه الذي وهبه له الوهاب، ويعتبر ابن فورك من معاصري الباقلاني وشيوخه في مسائل الكلام أكثر، وعناية ابن فورك بالحديث أكثر، ويكفي أن من تلامذته الإمام البيهقي. وكان للباقلاني تأثيرٌ كبير في مسائل القناعات الكلامية لابن فورك، واجتماع الكلام والحديث في ثقافة ابن فورك، أكسبه منهجا فريدا في صياغة كتابه في مشكل الحديث، وحاول بمنهجه هذا ردم الهوة بين المتكلمة والمحدثين، وهذا المنهج الذي سلكه ابن فورك نجد آثاره واضحة عند البيهقي. إلا أن ابن فورك غلب عليه التأويل فجعله أصلا في فهم النصوص، واجترأ على ما لم يجترأ عليه أحد من قبله، فأول صفة الاستواء والعلو، ومذهبه هذا يعتبر تطورا انقلابيا في المذهب الأشعري، قال ابن فورك: "**قولنا إنه فوقها يحتمل وجهين: أحدهما: أن يراد به أنه قاهر لها مستول عليه، إثباتا لإحاطة قدرته بها، وشمول قهره لها، وكونها تحت تدبيره جارية على حسب علمه ومشيئته، والوجه الثاني أن يراد به أنه فوقها على معنى أنه مباين لها بالصفة والنعت، وأن ما يجوز على المحدثات من العيب والنقص والعجز والآفة والحاجة لا يصح شيء من ذلك عليه، ولا يجوز وصفه به، وهذا أيضا متعارف عليه في اللغة أن يقال:**

[16]– تنبيه الأفهام في مشكل أحاديثه عليه السلام ،عبد الجليل القصري، مخطوط ورقة 2.

فلان فوق فلان ويراد به رفعة المرتبة والمنزلة، والله عز وجل فوق خلقه على الوجهين جميعا وإنما يمتنع الوجه الثالث وهو أن يكون على معنى التحيز في جهة والاختصاص ببقعة دون بقعة"[17].

وقوله هذا خصوصا الوجه الأول، الذي أول فيه الفوقية بالقهر والاستيلاء وجه ومهيع لم يقل به الأشاعرة، بل كان مذهب خصومهم من المعتزلة، قال الإمام أبو منصور البغدادي وهو من كبار أئمة الأشاعرة: "... **فزعمت المعتزلة أنه بمعنى استولى، وهو باطل، لأنه يوجب أنه لم يكن مستوليا عليه قبل استوائه عليه، وزعمت المشبهة أن استواءه على العرش، بمعنى كونه مماسا لعرشه من فوقه، وبدلت الكرامية لفظ المماسة بالملاقات... واختلف أصحابنا في هذا، فمنهم من قال: إن آية الاستواء من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله. وهذا قول مالك بن أنس وفقهاء المدينة كالأصمعي. وروي أن مالكا سئل عن الاستواء فقال: الاستواء معقول، وكيفيته مجهولة، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب. ومنهم من قال: إن استواءه على العرش فعل أحدثه في العرش سماه استواء ... وهذا قول أبي الحسن الأشعري ... والصحيح عندنا تأويل العرش في هذه الآية على الملك، كأنه أراد: أن الملك ما استوى لأحد غيره...**"[18].

قال الإمام القصري في العلو والتنزيه عن التحيز في مكان: **"ليس في السماوات ولا في الأرض ولا في المشارق ولا في المغارب ولا في الوجود كله إله غير الله، لا رب سواه، فهو رب في السماوات ورب في الأرض ورب في المشارق، ورب في المغارب، ورب في الوجود كلها، أي قد أجمعوا على ربوبيته هو الحق، وحصلت رتبة سيادة ربوبيته في الكل، أي في قلوب الكل، فخرج من هذا كله أنه في الكل فوق الكل يخافون ربهم مِن فوقهم، وفوقه لا يشبهه فوق، لأن فوقه فاق كل فوق في الرتبة والمنزلة، وتقول العرب قال الرجل قومه بفوقهم فوقا إذا علاهم بدرجته وسادهم برتبته فهو في فوقه فوق الكل، فهذا بين لا إشكال فيه، فافهم فهمنا الله وإياك"**[19].

إن الفرق بين المنهجين في تناول الموضوع بين، فالأول يصير إلى التأويل المباشر، وإن تعددت أوجهه وترجح بعضها عن بعض، بينما الإمام القصري يفهم الأمر على ما هو عليه، وينزه بنفي التشبيه إجمالا، دون توصيف، ففوقه سبحانه لا يشبهه فوق، لأنه فاق كل فوق في الرتبة والمنزلة، وفرق بين قوله فاق في الرتبة والمنزلة، والقول بأن الفوق هو الرتبة والمنزلة، وكيف جعله القصري فهما للعلو والفوقية، وكيف جعله ابن فوك جائزا في اللغة دون أن يفسر به النص، مع تحاشي القصري لمصطلح المباينة والمماسة في آن واحد، وتقرير ابن فورك لهما قبولا وردا، إن الدقة في اختيار واختبار

[17]– مشكل الحديث وبيانه، ابن فورك، تحقيق موسى محمد علي، دار عالم الكتب للنشر، ج1، ص 173.

[18]– أصول الدين، عبد القاهر البغدادي، ص 60 .

[19]– تنبيه الأفهام في مشكل أحاديثه عليه السلام ،عبد الجليل القصري، مخطوط ورقة 26،..،30.

الألفاظ يفيد استقلال الإمام القصري بما عنده، وتحفظه من التوغل فيما توغل فيه ابن فورك، ومن قلده ممن جاء بعده فيما ذهب إليه، والتزام القصري بمنهجه دون تقليد، يبوءه منصب الصدارة و الريادة في هذا الباب.

ب– الصناعة الحديثية:

أثبت العرش ثم انقش، أصل أصيل في التعامل مع ما أوهم ظاهره التناقض مع أصل صحيح، فإذا ثبت ضعفه من الناحية الحديثية ترك ولم يلتفت إليه، فإن صح فإنه يصبح بعد ذلك موضوعا للتناول، وهو منهج عكسه المتكلمة، فالأصل عندهم أن الصحيح ما قبل التأويل وما لم يقبل تأويلا فإنه مردود كما سبق من كلام الغزالي، إلا أن الإمام القصري لم تبرز عنده آلية النقد الحديثي في رد الحديث من أصله، أو على الأقل بيان وجه قبوله ورده، مع عناية بذكر ألفاظ الحديث المتعددة، مع أنه كان ذا ثقافة حديثية واسعة، وكتابه شعب الإيمان يظهر هذه الثقافة؛ مما يدعونا إلى التأمل في هذا غياب هذه الآلية، وبعد التأمل تبين لي بأن نظر القصري كان أبعد من ذلك؛ فالقصري عالم عامل، فهذه الأحاديث منشرة مشتهرة، طافحة بها كتب الفنون، والناس علماء وعامة منصرفون عن الحديث، ولا يعرف النقد والتعليل والقبول والرد إلا خواص العلماء، والخوض في رد الحديث قد لا يجد قبولا كقبول بيان وجه رفع الإشكال عنه، وتحصيل المقصود هو رفع الإشكال. ثم إن رد الحديث حكم مظنون قد يتطرق إليه الاختلاف، لا ترتاح النفس إلى نتائجه تمام الراحة فيبقى القلب متعوبا كما قال الإمام القصري إلى أن ينجلي هذا التعب بالفهم الموهوب، ورفع الإشكال يتم عنده بالنظر العقلي.

ج– تحديد موضع الإشكال:

إن تحديد موضع الإشكال إشكال في حد ذاته لما ينبي عليه من فهم، ولما ينتج عنه من رأي، ولما يلزم بسببه من قضايا، فمسألة الاستواء على العرش، فصل الإمام مالك في رفع الإشكال فيها بالقول بأنه معلوم، والإمرار بخصوص الكيف لعدم القدرة على إبراز المفهوم، وبقي النقاش مفتوحا فأول المعتزلة الاستواء لما يلزم معه من التحيز والحركة والانتقال، وتبعهم ابن فورك من الأشاعرة كما أسلفت، وذهب الأشاعرة إلى نقل الإشكال من الاستواء إلى العرش، وتأويل العرش بالملك، إن ابن فورك –كما سبق– وقع في فخ التحديد هذا فخرج على مقتضى المذهب، لذلك بدا الإمام القصري حذرا في تحديد موطن الإشكال، وبالتالي قلب الموضوع على الخصم المشاغب باستشكال المحكم من النص، ولا بأس أن أورد بعض النماذج:

– حديث جابر[20]: ترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته،....وساق رواية أبي سعيد الخدري[21]، ثم قال: "**تفسير: اعلم أن الإشكال في هذه الأحاديث في ضرب المثل في رؤيته بالشمس**

[20]- رواه الطبراني، المعجم الأوسط، ج8،ص90، ح8057.دار الحرمين القاهرة.

[21]- رواها ابن ماجة، السنن، باب فيما أنكرت الجهمية،ج1،ص63،ح 179،دار الفكر بيروت.و أحمد بن حنبل في مسنده، ج3، ص 16، ح 11135، مؤسسة قرطبة مصر.وأبو يعلى في مسنده، ج2،ص 286،ح 10062.دار المأمون للتراث دمشق.
والنسائي في السنن،باب قوله تعالى وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها،ج6،ص 407، ح 11330 وابن عوانة في مسنده من طريق أبي هريرة، باب ذكر الخبر المبين أن الوتر ركعة من آخر لليل،ج1،ص144،ح430،دار المعرفة بيروت.

والقمر، وسبحان من آتى رسوله جوامع الكلم وليس الأمر إلا كما قال عليه السلام، والحكمة فيهما في ضرب المثل بهما، ولم يخص من الموجودات شيئا فضرب بها المثل في ذلك، وذلك أن / الشمس والقمر هما المنيران اللذان استنار بهما هذا العالم، ولا يرى أحدهما ما لم يكن الصحو، ولا تراهما الأبصار إلا بنورهما إذا تجليا، ولا ترى الأشياء في هذا العالم إلا بأنوارهما المتجلية للأبصار" وعدد الأوجه التي اختص الله بها الشمس والقمر، ثم استرسل في بيان كنه ضرب المثل، **قائلا: "فالتشبيه إنما وقع على رفع الحجاب وعلى أن الأبصار لا تقدر أن ترى الشمس والقمر إلا إذا ظهر، فبظهورهما رأتهما الأبصار، وبنورهما رأتهما الأبصار في جميع الأقطار، وبتجليهما في ظهورهما استنارت الأشياء، فلولا نورهما ما رآهما أحد أبدا، كذلك الباري جل جلاله لا يقدر أحد أن يراه رؤية الحقيقة بنور محدث عقلا كان أو بصرا، ولكن يراه رؤية الاستدلال، والمستدل لا محالة غائب، ويستدل على غائب عنه أيضا، فإذا كشف الباري جل جلاله الأستار والحجب عن الأبصار والقلوب التي حجبتها عنه تجلى وظهر بنوره المبين فرأته الأبصار أبدا بأنوارها المحدثة".وكان قال قبل ذلك: " بأن من لم يجعل الله له نورا فما له من نور، وأن المؤمن –كما قال سهل بن عبد الله– إنما ينظر إلى ربه بلطيفة من نوره يوصلها إلى قلبه وبصره في الآخرة، وهي سر من سر إلى سر، وغيب من غيب إلى غيب، وحقيقة من حقيقة إلى حقيقة، ليس بمكونة ولا مخلوقة، ولا بمعنى الحلول"**[22].

ثم إنه في تحليله نص على رؤية الاستدلال، والمعتزلة يؤولون الرؤية بالعلم، فأثبتها، وزاد عليها رؤية العيان بعد أن يكشف الباري الأستار والحجب، ومن قارن بين تحليل الإمام القصري والإمام ابن فورك، تجلى له بسط القصري، وقصور ابن فورك في البيان، وانشغال ابن فورك بالإجابة على إيرادات المخالفين، وعناية القصري بما يتعلق بالبسط والتبسيط ليدرك المعنى كل من تلقاه. إن هذا المنهج يبرز لنا شخصية العالم العامل المعلم المربي.

وحين حلل حديث أبي موسى[23]: **"إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل حجابه النار، وفي رواية النور، لو كشفها لأحرقت سبحات وجه كل شيء الخ.."** قال الإمام: **"الإشكال في هذا الحديث إنما هو في الاحتجاب، وقد أزال الإشكال فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين سمع قصابا يقول: "لا والذي احتجب بسبعة أطباق، فقال له علي رضي الله عنه ويحك يا قصاب إن الله لا يحتجب عن خلقه بشيء، ولكن حجب خلقه عنه..."**[24] فاستند إلى نص أثري وبالمثال ينجلي الإشكال، بينما خاض ابن فورك معركة طويلة فما يفيده إثبات الحجاب، وأن ما أول به الثلجي هو دلالة فوق دلالة

[22]– تنبيه الأفهام في مشكل أحاديثه عليه السلام ،عبد الجليل القصري، مخطوط ورقة32.

[23]- نفس المرجع، ورقة 31.

[24]– مسند الربيع، الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري، ج 1،ص 315،ح 838، دار الحكمة، بيروت.

ودلالة أظهر من دلالة، وأن الأجسام ليست تحجب على الحقيقة في المحدثات، في كلام طويل، لا يفهمه إلا من خص الله بذلك، أما العامة وطلبة العلم فمحجوبون عن رفع الحجاب عن المراد بالحجاب.

د– البعد التربوي في منهج الإمام القصري:

إن من المناقب المنهجية الشريفة التي وسم بها الإمام القصري منهجه استحضار البعد التربوي في تحليله للأحاديث المشكلة، وهو كما سبق أن قررت يبرز لنا شخصية الإمام القصري العالم العامل المعلم المربي، فهو لم يؤلف كتابه ليقارع الخصوم، أو يقارن أرباب الفهوم، بل ألفه ليفهم الناس، ويزيل عنهم تعب القلب، ويرفع عنهم الحيرة والإشكال، ويتجلى هذا البعد في منهج عرضه للقضية وتحليله لها، وعنايته بأثرها في سلوك المؤمن، وتجليات هذه الصفة أو ذاك المقتضى في عمله والتزامه، والكتاب طافح بمنجهه هذا وأكتفي بمثال واحد أسوقه: ففي حديث أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا سجد أحدكم فإنه يسجد على قدم الرحمن"، ثم فسرها بقوله: " السجود خصصه الله بهذا دون سائر العبادات، وأركان الصلاة، لفضله على سائر العبادات، ثم ذكر حديث أقرب ما يكون العبد إلا ربه وهو ساجد، ثم وجه الاستعمال العربي لعلى بمعنى تحت، ثم قال: "لأنه في المعنى رما بنفسه تحته بالذلة... ولما كان المصلي مناجيا لربه بكلامه العزيز وحاضرا معه متذكرا لعظمته وجلاله متفهما لكلامه وما فيه من الوعد والوعيد والزجر والرجا، والإعطاء والإهلاك، فإنه بشير ونذير والمصلي يقرع باب الملك، وأمر بالحضور بين يدي مولاه، والمشاهدة له، والخروج من الأشياء بقلبه ما استطاع فإذا خرج من الأشياء وفرغ قلبه فقد تقرب من ربه، ومن تقرب منه شبرا تقرب منه ذراعا ومن تقرب من ذراعا تقرب منه باعا وذلك إتيانٌ كريمٌ، ومجيءٌ نزيهٌ من الباري جل جلاله، وتنزل لعبده يخاطبه بكلامه، ويأمره ويناجيه، وذلك قدوم على العبد بالتجلي" ثم التفت لتفسير ما أشكل من لفظ الحديث فقال: "والقدم سمي قدما لقدومه بالجملة، على يريد، والساق سمي ساقا لسوقه الجملة إلى ما يريد، فأول ما يقدم على العبد من تجليه هو معنى القدوم، وإذا قدم ذلك المعنى على العبد بالتجلي سجد بالمعنى شاء أم أبى، فإنه ما تجلى الله لشيء إلا خضع له، ولما كان الوجه أشرف الأعضاء وأوجهها، رمى العبد بوجهه على قدم سيده مستجيرا وطالبا مستغيثا، وراغبا متضرعا، وممرغا وجهه راميا بنفسه وجاهه ووجهه على قدم مولاه حتى يعلم أنه لا يجيره منه سواه، ولا يرحمه إلا إياه" ثم ختم بقوله: "وهذا بين لا إشكال فيه". فالقارئ للنص لا يحس بنفسه وهو يلتذ بقراءة هذا النص إلا وقد استقر في وجدانه معنى أن يسجد على قدم الرحمن، ليتجرد من الحس، ويعانق المعنى في سليسة روحانية يتلقى معانيها بقلبه، ولا يجد من عقله ممانعة، إنه بنصه هذا يجعلك تعيش المعنى، وتتمثله، ولا أخفيكم سرا أنني وأنا أقرأ هذا النص أحسست برغبة شديدة في الارتماء بين يدي الله ارتماء ذلة أمرغ فيها الوجه على قدم الرحمن.

ولك أن تتصور حرارة نص الإمام القصري، وبرودة تحليل ابن فورك فقد قال في هذا الحديث: "ومعنى الخبر إن صح أن العبد يتوضأ للصلاة فيكسب بذلك الأجر، يحط الله عنه الوزر، ثم يدخل العبد في الصلاة، فيفتتحها بالتكبير،

وبما سنه النبي عليه السلام مما يقوله المصلي بعد التكبير، من الافتتاح للصلاة، ثم يقرأ ويركع ويرفع رأسه، فإذا سجد كان سجوده آخر كل ركعة على ما قدمه للرحمن فيكون قوله يسجد ابن آدم على قدم الرحمن يعني على ما قدم للرحمن"[25].

هـ– التحليل الذوقي:

إن للذوق معنى لا تصفه الألسن، ولا ترقمه الأقلام، وأريد أن أختم هذه المداخلة بتحليل ذوقي للجمال، افتتح به الإمام القصري كتابه، وتحليله هذا يهدي إلى منهجه في الجملة، فقد قال في خاطرة وجدانية رائعة تتجلى فيها معالم الشهود الروحي: "**رأيت أن يُفتَتَح الكتابُ بهذا الحديث ليكون فهمُه عوناً عظيماً على فهم غيره من الأحاديث؛ لأن جمال الله إذا تبين زاح عن القلوب قبح التشبيه والتعطيل، وانهدم بذلك عن القلوب قواعد الملحدة الزائغين، واستبان طريق المؤمنين والعلماء الراسخين**"[26]. يقرر هذا المعنى الذي ذكره الإمام القصري ابن القيم حين حديثه عن الجمال: وحكايته قول ابن عباس: "**حجب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال، فما ظنك بجمال حجب بأوصاف الكمال، وستر بنعوت العظمة والجلال**" بقوله: "ومن هذا المعنى يفهم بعض معاني جمال ذاته، فإن العبد يترقى من معرفة الأفعال إلى معرفة الصفات، ومن معرفة الصفات إلى معرفة الذات. فإذا شاهد شيئا من جمال الأفعال استدل به على جمال الصفات، ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات"[27].

إلا أن الناس في الجمال مذاهب: فالمعتزلة يرون أن الحسن والقبح وصفان ذاتيان في الأشياء، والأشاعرة يرون أن الأشياء في أنفسها قبل ورود الشرع لا توصف بحسن ولا قبح، والصوفية يؤكدون على أن "الحسن" وصف أصيل في كل ما خلق الله تعالى، ولتجلي الجمال "انبهار" يقهر عقل السالك إلى درجة "الهيمان".

قال ابن فورك: "أعلم أن وصفنا الشيء بأنه جميل يحتمل وجهين أحدهما أراد به جمال الصورة والهيئة والتركيب وذلك بأن يستجمله الناظر إليه وذلك مستحيل في وصف الله منفي عنه فإن قال قائل فكيف نفيتم ذلك عنه مع ما روي في خبر آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "رأيت ربي في أحسن صورة..."[28] قال القاضي في المشارق: "وفي قوله أن الله جميل يحب الجمال قيل: معناه مُجمِّل مُحسِّن وقيل: معناه ذو النور والبهجة أي خالقهما وربهما"[29]. قال ابن الجوزي في دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه: "قال العلماء الجميل المجمل بتحسين الصور والأخلاق والإحسان والذي أراه أن الجميل الذي أوصافه تامة مستحسنة"[30]. قال الرازي في التفسير الكبير: "حسن الأفعال كامل الأوصاف". أما الإمام القصري فبعد أن ساق كلام ابن فورك المتقدم قال: "هذا الذي ذكره ابن فورك أحد أقسام الجمال المنسوب إلى الله

25

[26]– تنبيه الأفهام في مشكل أحاديثه عليه السلام ،عبد الجليل القصري، مخطوط ورقة 2.

[27]– تنبيه الأفهام في مشكل أحاديثه عليه السلام ،عبد الجليل القصري، مخطوط ورقة 5.

[28]– مشكل الحديث وبيانه، ابن فورك، تحقيق موسى محمد علي، ج 1، ص 69.

[29]– مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي اليحصبي، المكتبة العتيقة للنشر، ج1، ص 152.

[30]– دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه، ابن الجوزي، تحقيق حسن القاف، دار الإمام النووي للنشر، ص1، ص 234.

وأقلها رتبة" وبعد أن بين وجه ذلك قال: "اعلم أن جمال الله تعالى على ثلاث مراتب: جمال أفعاله، وجمال صفاته، وجمال ذاته. وكل واحد من الثلاثة على ضربين أحدهما حسنه وكماله في نفسه، والثاني نفي الشين والعيب والقبح عنه، فإذا اجتمع المعنيان فهو الجمال على الإطلاق" ثم فصل كل مرتبة على حدة.

فأما المرتبة الأولى: جمال أفعاله فقد نطق القول به وشهد العقل له، قال الله عز وجل الذي أحسن كل شيء خلقه فأطلق الحسن على كل شيء والحسن هو الجمال بعينه ولا يجوز أن يقال في هذه تخصيص لأن الله تعالى خالق كل شيء وقال أحسن كل شيء خلقه فلو دخلها تخصيص جاز أن ينسب شيء من الخلق لغيره والوجود كله إذا نظر من حيث هو خلق الله وكيف رتب الأشياء ووضعها مواضعها حتى لا يجوز أن يكون الشيء على خلاف ما وضعه الله عليه، تبين حسن أفعاله وجمالها والجمال في المحسوسات هو تناسب الأجزاء، واعتدالها وقوام صورها وصفا ديباجها، الملونات، منها ورفع الرفيع فيها ووضع الوضيع وإظهار المتضادات لتبيت الأشياء وتفهم وتعلم فلولا الضد ما عرف ضده فلو اجتمعت العقول بأسرها على أن يقدروا أن يكون العالم أجمل مما هو عليه أو خلاف ما هو عليه أو يعيبوا منه شيئا وإن قل بما يقدروا على ذلك كيف لا وهو خلقه وصنعه وعن معاني آسمائه وصفاته أو جده.

فإن قلت: فإن الجمال ضد القبيح وقد وجد القبيح، ونطق به في العالم فاعلم أنه لا قبيح إلا ما قبحه الشرع، بإجماع من العقول السالمة الشرعية والذي قبحه الشرع إنما هو شيء واحد وهو عصيان الباري عز وجل على اختلاف أنواعه وقبحه إنما هو شيء واحد وهو عصيان الباري عز وجل على اختلاف أنواعه وقبحه إنما هو من وجه واحد فقط ليس من كل الوجوه وذلك الوجه إنما هو من حيث إضافته إلى الخلق فقط وإما إذا نظر من حيث هو خلق الله وقدره فقد دخل في قوله[أحسن كل شيء خلقه]فالقبح إنما هو من حيث إضافته إليهم ولم يكن لهم من حيث هم أن يعصوا بارئهم ويكفروا نعمه ويخالفوه وهو مولاهم وسيدهم المنعم عليهم فليس من الحكمة أن يعيوا نعمه إلى غيره وأن يكفروه ويعصوه بها، فاللوم واقع عليهم والتقبيح لازم لهم لا من حيث هو خلق الله وتقديره فلا لوم عليه ولا اعتراض ولا تقبيح في فعله ولا عيب جل الله الجميل الأفعال الكريم الفعَّال فإذا علمت هذا علمت ألا قبيح في أفعاله لأنه خالق كل شيء والخلق لم يخلقوا في الحقيقة شيئا وإنما ادعوا وتوهموا أنهم يقدرون أو ينفعون أو يضرون وذلك كله باطل فلذلك وقع التقبيح عليهم، فالوجود كله يتلألأ حسنا وجمالا يبتهج تماما وكمالا، وكيف لا وهو موجود عن معاني أسمائه الحسنى وصفاته العلى والعلوم والمعلومات عن معاني اسمه العليم والقدير والمقدورات عن معاني اسمه القدير، والإرادات والمرادات عن معاني اسمه المريد والكلام والمتكلمون والمكلمون عن معاني أسمه المتكلم وهكذا استقر جميع الأسماء والصفات تجدها عاملة في الوجود كله قائمة به لم يكن شيء إلا عنها وبها، فالوجود كله حسن جميل فافهم[31].

فصل: وأما المرتبة الثالثة من جمال الله جل جلاله فهو جمال أسمائه وصفاته، وقد تقدم أن الجمال هو الحسن، قال الله عز وجل: ولله الأسماء الحسنى فأطلق الحسنى على أسمائه، وكل اسم دال على صفة عليا فجمال، فجمال أسمائه وصفاته على

[31]– تنبيه الأفهام في مشكل أحاديثه عليه السلام ،عبد الجليل القصري، مخطوط ورقة 3.

ضربين: الضرب الواحد انفراد كل اسم وصفة في نفسه بالكمال الذي لا مثله كمال، والضرب الثاني نزاهة كل اسم وصفة، ونفي النقص عنه فكمال أسمائه وصفاته مقترن بالنزاهة والبعد عن معاني الحدث والنقص، قال الله عزوجل، "ولله الأسماء الحسنى" فقال: الأسماء بالألف واللام المعروفة بالكمال في العالمين أجمعين، وقال أسما من السمو أي سمت بعلو مرتبتها العالية سموا ليس مثله سموا، قال الله عز وجل:"رب السموات والارض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا"، أي من تسمى بأسمائه أو من يساميه أو يدانيه بها ثم قال: الحسنى أي الثي يتب لها كل جمال وكمال، وانتفى عنها لنزاهتها وبعدها عن شبه الحوادث مع الآباد والآزال فكل اسم من أسمائه ووصف من أوصافه غني نزيه جليل رفيع عظيم بديع قدوس كبير واجد لا شبه له، صمد لا ند له، فرد لا قرين له، وتر لا مثل له، ملك لا مقاوم له، سبوح لا شين فيه، عزيز لا ينال، جبار لا يلحق، كبير لا يدانى، علي لا يسامى، عظيم لا يرتقى إليه، جليل لا يزدرا، مجيد لا يساوى، حسيب لا تحصى مآثر شرفه، صمد يقصد في سؤدده، غني بنفاسة نفسه، رفيع بكبرياء مكانته، ذو الطول المتطاول على الموجودات برفيع درجاته، ذو الفضل العظيم برتب سيادته، كريم على النفوس كلها لنزاهة قدره، طيب مستلذ في أفواه المسبحين والذاكرين، ذكره أول مقدم قبل كل شيء قديم رتبه، آخر مرجوع إليه في كل شيء، فلا ينفذ شيء إلا بأمره، ظاهر حمل ذكر شيء عند ظهور قدره، باطن حجبت الأبصار عنه لجمال سبحانه، حتى لا يطرقه موت، قيوم لا يخالجه نوم، عليم لا يشينه جهل، قدير لا يقيده العجز، قوي لا يهينه الضعف، سميع لا يعبه صمم، بصير لا يحله عور، ومتلكم بضروب أنواع البيان، لا يعتريه عمى ولا بكم، مريد لا يكون إلا ما شاء، منزه عن العمل، محيط لا يشد عنه شيء، واسع لا يضيق ولا يقصر عن شيء، حاضر لا يغيب عنه شيء، خبير اطلع خفيات كل شيء، محص لأجور الموجودات، ولم يفته منها شيء، رقيب على الأشياء لا يذهب عليه منها شيء، رقيب على الأشياء لا يذعب عليه منها شيء قريب يدرك بلا مسافة كل شيء، رحمان لا يعتريه رقة، ودود يحب لا لغرض، رؤوف يسمح بإسقاط العقوبات من غير عوض، بر كريم ويعز أهل طاعته بترفيع منازلهم إليه، حفي يعتني بالسؤال عنهم لكرامتهم عليه، حليم لا يطيشه خلاف المخالفين، صبور لا يتضرر بأذية المؤذين، ولي قام بتدبيره الأكوان والأزمان والدهور، مدبر أشرف على غوامض عواقب الأمور، صادق لا تخلف أقواله موعده تخلف مواعيده ذاكر لا يعتريه نسيان، منعم بأنواع ضروب الإحسان، منان بما أسدى من المنن والعطايا، محسن بفضائله لجميع البرايا، حنان تعطف على عباده من غير ميل، هادي معلم بما يهدي ويضل، نور زين الممالك كلها بنفسه، مبين حفي خفي كل شيء بظهور قدره، مهيمن يضائل كل شريف لعلو شرفه، حميد يثنى عليه بجميع المدائح، شكور يثنى بفضله على كل صالح، غيور يزجر عن كل قبيح، حكيم أدهش كل فصيح وبليغ، ثواب يرجع بعطفه على الآبقين، رحيم يرد إليه الهاربين، فتاح يحل العقد وأسداد المغاليق، قاضي يقضي وينفذ حكمه في جميع الخلائق، كفيل يكفل الوجود من الغوائل والبوائق، حفيظ على كل شيء فلا يعيقه عائق، مبرم أحكم الأشياء، ونهج الطرق والمسالك، عدل أحسن السير في جميع الممالك، خالق أوجد الأشياء على غير مثال، خلا من غيره، بارئ سوي وأصلح ما خلق بإتقان صنعه، مصور هيأ صور هيئات الموجودات بجمال تصويره، بديع معجب أحداث عجائب الأفعال وغرايب الصنائع والأعمال، منشئ ينهي ويوصل المنشآت إلى غايات التمام والكمال، مبدي

أظهر أعيان الوجودات من ليل العدم، معيد يعيدها كما بدأها، ويعبد أبدا إظهارها لئلا تنعدم، فاطر طبع الموجودات على معرفته وأفطرهن بلبان فطرته، جاعل نصب الأشياء آيات باهرات ودلالات هاديات، وكيل فوضت إليه مقاليد الأمور، باعث أثار الأرواح والأشباح وحركهما من الأجداث والقبور، مرسل أرسل الخواص بكتبه، وهو في سماء عزته ليبشروا ويخوفوا من سطوته، جامع جمع الأشياء فانضمت منقادة لطاعته ،غفار، منتقم، معز، مذل، ضار، نافع، عفو، شديد العقاب، حافظ، رافع، معطي، مانع، كاشف الضر، مبلي، فارج الغم، منتقم، طالب مدرك، مهلك، منجي، يفعل ولا يبالي، جمع في ذلك كله وفي جميع أسمائه وصفاته المهابة والسمح والجلالة والصفح، فهو قهار لا يطاق، غالب لا ينازع، وهاب يعطي العطايا ولا يخاف الإملاق، رزاق يجري جرايا الرزق على خلقه منذ خلق خلقه بضروب الإنفاق، جواد كريم، لا يصعب عليه العطا، ولا يكثر على ممر الدهور والأيام، لانتفاء البخل عن أوصاف الكرام، قابض باسط يطوي الوجود كله وينشره، وينهاه ويأمره، ويرفعه ويخفضه، ولا معارض لأمره، ولا معقب لحكمه، ناصر لأوليائه، قاصم لظهور أعدائه، فاتن مبلي يبتلي بضروب الفتن، وأنواع البلايا والأسقام، شافي يذهب حيرات الشكوك ومرارة الأدواء والألام، ويعقب مكانها حلاوة العوافي والإنعام، المستعان المطلوب له، المأخوذ منه كل شيء المرجوع إليه في كل شيء، المعبود الذي انقاد له وتذلل وتصرف في خدمته كل شيء متم نوره ومتمم نعمه، ومتمم المطالب والرغائب والملك والملكون به وبوجوده فلولا هو ما كان شيء شيئا، فكل اسم من أسمائه ووصف من أوصافه له في نفسه رتب الكمال، ومعالي معاني الحسن والجمال، الذي لا يدانه جمال، ولا يقارنه كمال، وله أيضا النزاهة والبراءة، عن أوصاف المحدثات المنعوتة بالعبودية والإذلال، فكل اسم من أسمائه، ووصف من أوصافه هو جمال الوجود ونوره، ومزينه مكمله الذي لا بد منه، ولا غنا عنه، فجمال أسمائه وصفاته كما تقدم هو ثابت الكمال، وانتفاء النقص والخلل عنها، وهذا الجمال بحور لا تعبر أبدا، وبلمحة واحدة لمعاني أوصافه يتنعم الوجود دائما سرمدا، فسبحان من هو على ما هو عليه، وسبحان من تكل الفهوم وتعجز العلوم فلا تدرى كيف تثني عليه، وسبحان من تحار في جماله العقول فتبقى باهتة ولا تدري ما تقول، من الله علينا وعليكم بمعرفته في الدنيا والآخرة آمين[32].

فصل: وأما المرتبة الثالثة من جمال الله سبحانه وتعالى فهو جمال ذاته وهو على ضربين أيضا، أحدهما إثبات الكمال له، والثاني نفي شبه الحوادث عنه، والذات هو الوجود، والوجود واحد لا يتجزأ ولا يتعدد ولا يتحيز في جهة ، ولا يتقيد في مكان ولا يتحدد في نهاية ، ولا تزاحمه شيء لأنه مصمت صمد، ولا تلاصقه مع فيكون معه أحد، فجمال ذاته وما هو عليه من الكمال لا يدركه سواه، ولا يعلمه إلا إياه، وليس للمخلوقين منه إلا إلهامات يكشفها لبعض خواص الخواص، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله عز وجل" فإن ذلك الجمال مصون عن الأغيار، محجوب بستر الرداء والإزار، قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فما ضنك بحسن وجمال حجب

[32]– تنبيه الأفهام في مشكل أحاديثه عليه السلام ،عبد الجليل القصري، مخطوط ورقة 3.

بأوصاف الكمال، وستر بنعوت العظمة والجلال، فالحمد لله الذي لا يطيق أن ينظر إلى ذلك الحسن والجمال إلا بصر الكبير المتعال[33].

ومن هذا المعنى تفهم إن شاء الله بعض معاني ذاته وجماله ؛ لأن الشيء إذا خفي وكان مصونا لكماله، وحجب عنه الغير لحسنه وجماله، ولم يطق أحد النظر إلى الله لعظيم ما هو عليه، فقد علم أن ثم شيئا عظيما، لا يصلح أن يراه إلا ذلك العظيم، وعلم العبد لذلك إدراك لبعض معانيه، والعجز عن درك الإدراك إدراك، وكذلك فعل المصطفى صلى الله عليه وسلم في وصف ذلك الجمال الذاتي في دعائه المنصوص في الحديث الصحيح، فقال: "أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، قم قال: وبك منك" [34] المضمر هو الذات، في قوله: بك منك، لأنه المضمر المحجوب، ثم أظهر العجز فقال: لا أحصي ثناء عليه أنت كما أثنيت على نفسك، والنفس هو الذات، عظيم لا ساحل له، وجود لا حد له، كامل لا ند له، صمد لا جوف له، ولا تجويف، واسع لا شيء معه، هدم الكون كأنه وجوده مكانه لا يدركه على الحقيقة إلا علمه وبصره وإدراكاته التي هي على سعة ذاته، لا يصفه إلا كلامه، ولا يظهره ولا يعرف به إلا صفاته.

فهذه ثلاثة مراتب من الجمال لا رابع لها، لكنها على الإجمال، فلو فسر إجمالها تفسيرا وفصل محكمها تفصيلا الملائكة والعارفون ونون والقلم وما يسطرون في صحف صفحات العرش واللوح المحفوظ، وجميع الموجودات وبأيديهم أقلام على عدد المخلوقات، يستمدون من أنهار العلوم وبحار المعارف والفهوم يكتبون دائما بدوام الحي القيوم لما كتبوا ولا أثنوا ولا فسروا مقدار ما أخذ منقار الطائر من البحر، بالإضافة إلى ما هو الله عليه من الكمال والجمال، فالحمد لله الذي هو ربنا على ما هو عليه والحمد لله الذي رحمنا بالعجز ورد الثناء إليه.

فهذا معنى قوله عليه السلام إن الله جميل بمعنى فعيل، وبمعنى مفعل، أي جميل في نفسه، ومجمل في أفعاله، إذ قال في الحديث: يحب الجمال، فهو عز وجل يحب نفسه وصفاته، ويحب أفعاه، من وجه إضافتها إليه، لأنها متكونة عن معاني أسمائه وصفاته، وأما بعضها أبغض من بعض، فمن وجه الكفر والمخالفة له، وإضافتها إلى غيره، فهو يبغض هذا الكفران وارتكابهم للعصيان.

وجمال أفعاله تعالى على أربع مراتب والله أعلم بما خفي عنا من وراء ذلك:

المرتبة الأولى: جمال تركيب الصور في المصورات، وخلق الذوات الحيوانات والروحانيات.

المرتبة الثانية: جمال إحسان الله وستره وإنعامه وإفضاله على الكل من مخلوقاته.

المرتبة الثالثة: جمال الديانات والتزين له تعالى بوظائف العلوم والعبادات في جميع المخلوقات.

---

[33] – تنبيه الأفهام في مشكل أحاديثه عليه السلام ،عبد الجليل القصري، مخطوط انظر ورقة 4 ،5،27،28،29.

[34] – صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، باب ما يقال في السجود والركوع، دار الجيل، ر.ح 1118.

وهذا كله مجمل يحتاج إلى تفسير كثير لا يسع أوراقا كثيرة، وقد سمى الله وظائف الدين كلها حسنات ، ولا أجمل ولا أحسن مما سماه حسنا وسمى الجزاء عليها أيضا حسنا، فقال تعالى: "للذين أحسنوا الحسنى"، وفي الحسنى التي هي الجنة هو الجمال الذي لم تر عين مثله، ولا سمعت به أذن ولا خطر على قلب بشر،

والمرتبة الرابعة جمال الجزاء من الله عليها، في المآل والحال، فمن الديانات ما جزاؤه النظر إلى وجهه الكريم، ومنها ما جزاؤه الخلود في دار النعيم، وهكذا لكل عمل من الدين جزاء من الله وجزاؤه على قدر كرمه وفضله، من الله علينا وعليكم بالتجمل بجمال طاعته، والخلود في دار كرامته، والنظر إلى كمال جماله، مع أنبيائه وأوليائه آمين

وصلى الله عليه سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

خاتمة

بعد هذه الجولة الماتعة مع فكر العالم الفقيه المتصوف السُّني يتبين أن التدين وفق الاختيارات التي تمليها ظروف طبيعية وأخرى سياسية بشأن الثوابت الدينية في البلاد المغربية يكون عن علم واقتناع ولا يكون عن التقليد. الأمر الذي يتطلب فهما عميقا، واعتدالا وتوسطا فكريا يعتمد منهجا ينهل من العلوم التي تتعاطى مع نصوص الوحي بالقدر الذي يوفر حسن التخلص من عقد الإشكالات العقدية، والالتزام بالاستدلالات السنية ، والاحتراز من التوغل في جدل الفرق الكلامية الناتج عن الترف الفكري النظري، والاهتمام بما هو عملي. بما يعرب ويفصح ويدل على أن الفهم السليم والتقيد بمنهج التصوف السني العملي قد يسمح بالتزام الثوابت الدينية التي تجمع المذهب المالكي في الفقه والمذهب الأشعري في العقيدة والمسلك الصوفي السني في السلوك. كما يسمح بتحرير مواطن الإشكال العقدية والنظرية والعملية ويطيل النفس في التحليل مع الالتزام بالثوابت؛ لأن مجال الاختيار والاستدلال يتيحه المقام وفق الفهم المعتدل. ويتضح هذا الأمر من خلال المقارنة التي قدمت الورقة أمثلة منها بين الفقيه الجليل عبد الجليل القصري والإمام المتكلم ابن فورك. كما يتضح أن سلامة الفكر والفهم الصحيح ساعدت في سلاسة التعبير وحسن الاستدلال والجمع بين ما يعتقد أنه مفترق وغير متجانس.

إن المحاولة التي قام بها الإمام عبد الجليل القصري في حل أحاديث المشكل العقدي تعتبر منقبة انفرد بها عن غيره وكان له بها قصب السبق من حيث الفهم وبراعة أسلوب التحرير وحسن التخلص من الجدل العقيم، واختيار الاستدلال المناسب والإقناع المباشر الذي يوظف الفكر والفهم والعمل في مجال يراعي الالتزام بالمذهب الأشعري في العقيدة والتصوف السني في السلوك والمذهب المالكي في الفقه بلمسة وهمسة علمية متكاملة منسجمة ومتناغمة. ويمكن أن نعتبر هذه المنقبة مفخرة للدول المغربية التي تتبنى هذه الثوابت جملة وتفصيلا؛ من شأنها أن تحافظ على الخصوصية وتوحد الكلمة وتجمع بين الفرق والمذاهب المعاصرة بالنسج على منوالها، وتوظف في إصلاح الشأن الديني في الدول المغربية. أما منهج الإمام في تناول المسائل فهو يعتمد في حل عقدة الإشكال بناء على قواعد وضوابط تفسير النصوص بما يجليها بالفهم والذوق والتخلص من عقد الإشكال المرتبط بالثوابت على الصعيد العقدي، بالتزام السنة واستثمار أثر التصوف السني على السلوك والتمسك بالمذهب المالكي المنسجم مع عقيدة أهل السنة.

هذه المحاولة تبقى جديرة بالدراسة والتدقيق والبحث والاستنتاج والاستدراك لأهميتها في التأليف بين الثوابت الدينية في زمن تفرقت فيه العلوم وأصبح لكل فن تخصصه ورجاله. والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

- ابن عوانة، المسند ،دار المعرفة بيروت.
- ابن ماجة، السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ،دار الفكر، بيروت.
- أبو يعلى، المسند، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، 1404.
- أحمد بن حنبل، المسند، مؤسسة قرطبة، مصر.
- الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار، ابن عبد البر يوسف بن عبد الله بن محمد، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار قتيبة، 1993.
- أصول الدين، البغدادي أبو منصور عبد القاهر بن طاهر، دار الآفاق الجديدة، 1981.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبد البر، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوى و محمد عبد الكبير البكرى، مؤسسة القرطبة.
- تنبيه الأفهام في مشكل أحاديثه عليه السلام ،عبد الجليل القصري، مخطوط مجموعة وقف محمود باشا. 107 تركيا المكتبة السليمانية باستانبول.وعنوانه: "**كتاب شرح مشكل الحديث**".
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه ، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة ، الطبعة الأولى، 1422هـ
- حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين، الصاوي، أحمد بن محمد الخلوتي، دار إحياء التراث العربي، 1970.
- دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه، ابن الجوزي، تحقيق حسن القاف، دار الإمام النووي للنشر، 2005.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب أرناؤط، مؤسسة الرسالة. الطبعة الثالثة، 1405هـ/ 1985م.
- صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقيّ، دار الجيل للنشر، بيروت.
- الطبراني، المعجم الأوسط، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد و عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني.دار الحرمين، القاهرة، 1415.
- علم أصول الفقه ، خلاف عبد الوهاب ، مكتبة الصفحات الذهبية، 1985.
- عمدة أهل التوفيق والتسديد شرح عقيدة أهل التوحيد الكبرى، تصنيف: العلامة أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي التلمساني، مطبعة: جريدة الإسلام بمصر سنة 1316هجرية.

- مجموع فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، مكتبة النهضة الحديثة، 1984.
- المستصفى، أبو حامد الغزالي ، تحقيق محمد بن سلميان الأشقر، طبعة الرسالة.
- مسند الربيع، الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري، تحقيق عاشور بن يوسف، دار الحكمة، بيروت، ط1، 1415.
- مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي اليحصبي، المكتبة العتيقة للنشر، الطبعة: الأولى، 1417هـ/1997م.
- مشكل الحديث وبيانه، ابن فورك، تحقيق موسى محمد علي، دار عالم الكتب للنشر، بيروت، 1985. – معيار العلم في فن المنطق، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، تحقيق :الدكتور سليمان دنيا، دار المعارف، مصر،1961 م.
- موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى.
- النسائي، السنن الكبرى، تحقيق أبو الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، 1406.